بانوراما

الطبعة الرابعة من كتابه بالصورة عن الحرب وما بعدها

قيومجيان: تلفزيون لبنان صانع الذاكرة

يعيش الاعلامي اللبناني حالة ترقب في انتظار ما ستؤول اليه الامور في البلد. الحرب، الذاكرة، التصالح مع الماضي، القيم المشتركة التي توحّد الشعب والمجتمع... كلها قضايا انشغل بها في رحلته ومسيرته على الشاشة كما في الواقع. اخيرا، صدرت الطبعة الرابعة من كتابه "لبنان... فلبنان" الذي يحكي بالصورة قصة الحرب وما بعدها من خلال ملاحقة اصحاب الصور الشهيرة مثل المقاتلين وغيرهم، والوقوف عند وضعهم اليوم

الاعلامي زافين قيومجيان.

التقت "الامن العام" زافين قيومجيان للحديث عن كتابه ومسيرته التي تختصر تجربة جيل الحرب وما بعدها.

■ اصدرت اخيرا الطبعة الرابعة من كتاب "لبنان... فلبنان"، بعدما ابصرت طبعته الاولى النور عام 2003، ثم الثانية عام 2005، فالثالثة عام 2009. في رأيك ما سر نجاح هذا الكتاب؟

□ للصراحة، سرّ نجاحه هو السيّاح والاجانب والمغتربون الذين يحبون عادة هذا النوع من الاصدارات. هم يبتاعونه من المطار، معتبرين انه مثابة تذكار وهدية كلاسيكية من لبنان.

■ هل تقصد ان الكتاب موجه اليهم في الاساس؟

□ كلا، حين قررت انجاز هذا الكتاب، كان الامر يتعلق بي تحديدا، وبعلاقتي بالحرب. في 2003، سنة صدور الكتاب، لم يكن احد يريد استعادة الحرب او التحدث عنها. لم يكن موضوع الحرب محبذا لان لبنان يومها كان يعيش في مرحلة اعادة الاعمار والبناء، ولا احد يريد استرجاع ذاكرة الحرب في حين انها كانت لا تزال فاعلة. لم اعرف كيف اصرّف هذه الذاكرة، واحل اموري مع هذه الحقبة من تاريخنا. لذا، اشتغلت على مفهوم الكتاب الذي يتعلق بصور الحرب التي كانت مطبوعة في ذاكرتي. فتشت عن الاشخاص والاماكن الذين ظهروا في هذه الصور، وكيف تحوّلوا وتغيروا بعد عشر سنوات من انتهاء الحرب. في العادة، كان لدي ارشيف من هذه الصور، لانني كنت اقص تلك المؤثرة من الصحف اليومية الخاصة بفترة الحرب. هذه الهواية في مراهقتي شكلت ايضا بداية اهتمامي بمهنة الصحافة. علاقتي بالحرب كانت من خلال هذه الصور حصرا، لانني لم اكن اعيش في منطقة ساخنة، ولا عايشت لحظات الحرب المرعبة، بل كنت اسمع دويها، ثم اقرأ قصة الانفجار من خلال صحيفة اليوم التالي. لذا، عشت الحرب من خلال الصوت والصورة فقط، وكنت انشئ قصة وهمية مع الحرب من خلال الجريدة. عندما عثرت على هذا الصور في عام 2000، عادت الي هذه الذكريات، وصرت افكر في كيفية التعامل مع هذه الذاكرة، وذاكرة ابناء جيلي في المحصلة. صرت افتش عن الاشخاص الذي التُقطوا في هذه الصور، وحتى الاماكن التي برزت في كل صورة. استغرق البحث عاما، بدءا من التفتيش عن صاحب الصورة الاصلية، ومكان التقاطها الى ان اصدرت الكتاب بصيغة "قبل وبعد" اي المكان الذي ورد في الصورة لحظة الحرب، وما الذي اصبح عليه اليوم، وكذلك الامر بالنسبة الى الاشخاص. كان الكتاب اشبه بمغامرة واختتام لفصل علاقتي وذاكرتي بالحرب. نجح وساعدت الظروف في ذلك، فهو عمل نوستالجي وفني في آن سواء.

■ ما الذي اضفت اليه في طبعته الرابعة؟

□ يمكن القول انه اشبه بكتاب جديد، كأنه كتاب سنوي، يرصد كل تحولات لبنان منذ 2003 حتى اليوم من خلال صور الحرب، كما يرصد كل الاحداث والتحولات والتطورات الكبرى الذي شهدها. لعله مشروع سيصبح دوريا، فالصورة افضل وابلغ ما يرصد هذه التحولات. في هذه الطبعة، قلصت من النصوص لصالح الصورة. فروحية النصوص في عام 2003 كانت لغة الحرب، والملاحق الاخبارية، والعمليات الامنية التي كانت سائدة. اليوم، وجدت ان هذه اللغة وهذا الحقل المعجمي ما عادا غريبين عن اللبنانيين، بل انهم يستخدمونهما في اللغة السياسية اليومية. لذا، اعطيت مساحة اكبر للصورة.

■ يمكن القول بناء على ما اخبرتنا به ان الحرب كانت مفصلية في توجهك المهني واختيارك الاعلام؟

□ بالطبع، انا من مواليد عام 1970. في اللحظة التي كنت قادرا فيها خلال الحرب على تكوين وعي سياسي، قيل لي انها انتهت. فوسائل التعبير الخاصة بجيلي، كانت تقتصر على حمل سلاح. لكن مع انتهاء الحرب، تغيّر مفهوم التعبير عن الذات، وتغيّرت حدودي الجغرافية. صارت حدودي تمتد على كل لبنان. وبينما كنت احلم بتغطية الحرب، وجدت نفسي فجأة اغطي عملية اعادة الاعمار. فانا من جيل الحرب ومن جيل اعادة الاعمار في آن. بالنسبة الي، روح التسعينات كانت اجمل ايام حياتي، لانّها كانت مثابة اعادة تأكيد على ان لبنان وطن حي.

■ الكتاب يحمل رسالة واضحة، هي رسالة امل وانبعاث وايمان بلبنان، اخبرنا انت ما الذي اردت ان توصله من رسائل عبر هذا الكتاب؟

□ صحيح ان الصور التي يضمها الاصدار مأساوية بعض الشيء، لكننا هنا نرى ايضا مرحلة ما بعد المأساة، وكيفية استمرار الحياة. الكتاب يحمل رسالة امل وحزن في آن، ورسالة ولادة لم تتحقق. مثلا، نرى صورة مقاتل يستعد للنزول الى الميدان بهدف القتل، والى جانبها صورة جديدة للمقاتل عينه بعد انتهاء الحرب ومرور السنوات، وهو كبير في السن، وبات رب عائلة، لكن الغريب ان كل المقاتلين الذين وردت صورهم في الكتاب يمتلكون النظرة ذاتها في عيونهم. نظرة كأنها تقول: ما الذي جنيناه بسبب هذه الحرب؟ في الحروب الاهلية، كلنا خاسرون. حين صدر الكتاب، راودتني فكرة تمنيت لو وضعتها فيه مفادها ان الصيغة الحديثة من مقولة "الدين افيون الشعوب"، قد تكون "الانتصارات الوهمية هي افيون الشعوب". لغاية اليوم، كنا وما زلنا نعيش انتصارات وهمية. كما انني اردت من الكتاب ان يخبر الشهود على الحرب وضحاياها ومقاتليها نسختهم من القصة لان سرد الحرب اللبنانية اقتصر على السياسيين والصحافيين والصحافة والاجانب. لذا، فالكتاب فرصة ◄

نقطة على السطر

من أجل متحف بصري في لبنان

الشغل الطويل النفس الذي قام به الاعلامي زافين قيومجيان في كتابه "لبنان... فلبنان"، يضعنا وجها لوجه امام ذاكرتنا الجماعية. نستعيد ايامنا الصعبة، وايامنا الحلوة، آمالنا، افراحنا، خوفنا، احزاننا، المحطات الفريدة في السياسة والثقافة والفن والاجتماع، وسنوات الحرب المظلمة، وكل ما تشكّل منه الزمن السعيد في بيروت، ولبنان عموما... ما فعله زافين هو نبش ارشيف محطة تلفزيونية، لم يكن هناك غيرها في لبنان، المحطة الوطنية، "تلفزيون لبنان".

لنا عودة تفصيلية لاحقا الى "تلفزيون لبنان"، هذه المؤسسة العظيمة بين مؤسساتنا الوطنية، مثل الجامعة والبرلمان، ونكاد نقول بأهمية المؤسسة العسكرية والامنية، لأنها تحمي وتدافع وتبني وتربي وتصون على طريقتها... يجب ان يعاد الاعتبار الى "تلفزيون لبنان"، ويعاد احياؤه وانعاشه كي يستعيد دوره المحوري في صيانة الشخصية الوطنية، في ادغال الاعلام المعاصر الذي تشظى وتعدد وتنوع، حتى فقدنا نقاط الارتكاز. لكن تلك مسألة اخرى، لنبق الآن مع تجربة زافين.

ربما لأنه رجل صورة، ورجل تلفزيون، امضى سنوات اساسية من عمره المهني بين الارشيف والاستوديو، يعرف زافين اهمية الصورة، واهمية احيائها، واعادة اكتشافها وقراءتها ووضعها في تصرف الجمهور. من رحلة البحث والاكتشاف تلك، الممتعة بلا شك، والمضنية، رحلة اقتفاء الاثر التي قام بها الاعلامي، نستخلص اليوم امام الطبعة الرابعة لكتابه الانيق كقطعة فنية، دروسا وعبرا للمستقبل.

الصورة الفوتوغرافية تستحق عناية خاصة من المؤسسة الرسمية وسياسات الدولة ومخططات وزارة الثقافة. في الدول الراقية التي انجزت تقدمها ونموها، هناك المتحف الوطني الذي يحتضن التحف والآثار، ومتحف الفنون الحديثة والمعاصرة، ومتحف العمارة، ومتحف السينما، وحتى متحف الازياء والموضة... هناك ايضا متحف الصورة الفوتوغرافية. لعلنا في لبنان، حيث الذاكرة الوطنية والجماعية تبدو مهددة بالتصدع أو حتى بالامحاء، عند كل امتحان جديد، وازمة جديدة، احوج ما نكون الى هذا الصنف الاخير من المتاحف.

لا نتحدث فقط عن الصورة الفنية، بل تحديدا عن الصورة الارشيفية. صور الصحافة، وصور الإعلانات، وارشيف المؤسسات الاعلامية والتربوية والثقافية والعلمية والامنية والتجارية والسياسية والحزبية... وصولا الى الالبومات العائلية، وكل المادة البصرية التي توثق ـ بشكل مباشر، او غير مباشر ـ لتاريخ لبنان الاجتماعي والسياسي والعمراني والثقافي، الخ...

هناك مبادرات خاصة في لبنان مثل "المؤسسة العربية للصورة"، لكن اهتماماتها لا تغني عن متحف وطني يجمع هذا الكنز، هذا التراث الحي، ويصنفه ويحفظه، ويفتحه للباحثين، ويعرضه للجمهور.

لنطالب باعادة الاعتبار الى ذاكرتنا البصرية.

سمير مراد

◄ لهؤلاء الاشخاص الذين تجمدت حياتهم في لحظة كي يخبروا قصتهم. بعضهم اكمل حياته، لكن بعضهم الاخر لم يتخط تلك اللحظة. لذا، فتحت لهم الباب والفرصة للتحدث، وتحدثتُ انا عنها، وهي في النهاية نظرة الشعب اللبناني الى الحرب. ولعل احدى اكبر مآسي الحرب ان الكل يتعاطى معها كأنها لم تحدث. نحن لم نتعلم اي عبرة او درس منها، بل انها استحالت شبحا يجعلنا نخاف التغيير. الدرس الوحيد من الحرب هو خوفنا من التغيير لان ذلك يجعلنا نستعيد شبح حرب لم نتعلم منها شيئا.

المسعف نبيل بيطار ينتشل عام 1985 رضيعة من بين انقاض انفجار سيارة مفخخة، وفي الصورة المقابلة الرضيعة وقد اصبحت شابة بعد عشرين عاما من الحادثة (من كتاب "لبنان... فلبنان").

العروسان عبد جمعة واريج اسطفان لدى زفافهما عام 1983، وفي الصورة المقابلة حياتهما في دبي عام 2019.

■ كتابك "اسعد الله مساءكم" ("هاشيت انطوان")، وثّق ايضا مئة لحظة صنعت مجد "تلفزيون لبنان" منذ لحظة التأسيس في العام 1959، وتجارب البدايات في الستينات، والزمن الجميل في السبعينات، فالحرب وصولا الى العام 1989 وولادة الجمهورية الثانية، اخبرنا قليلا عن الكتاب؟

□ احب العمل على الذاكرة الجماعية لان احدى مشاكلنا الاساسية اننا لا نملك عادات ومنظومة قيم ونظرة مشتركة الى الامور. صحيح اننا تعلمنا ان الحرية هي اهم قيمة للبنان الذي صوِّر عبر التاريخ على انه ملجأ للمضطهدين. لكن هذه القيمة اندثرت خلال الحرب، وصارت الحرية مرادفا للفوضى. بعد عام 2005، صرت افكّر بالقيم والامور التي جمعتنا عبر التاريخ، ووجدت ان التلفزيون استطاع خلق ذاكرة موحدة للمجتمع اللبناني. اخترع التلفزيون قيما مشتركة. صار اللبناني يفكر بعدم القتل مثلا، لان ابوملحم يفكر بهذه الطريقة ويدعو اليها وليس مختار الضيعة. وفي السبعينات، جاءت الدراما اللبنانية لترسي قيما جديدة ليس في لبنان فحسب، بل في العالم العربي اجمع مثل حقوق المرأة، والحرية والمساواة، وقيم الجمال والشهامة من خلال المسلسلات البدوية التي لعبت بطولتها سميرة توفيق مثل مسلسل "فارس ونجود" وغيره. صار المتنبي بالنسبة الينا والى العرب يعني عبد المجيد مجذوب، والفارس العربي الشهم محمود سعيد، وجميلة البادية سميرة توفيق التي لم تصوّر كامرأة خاضعة وقبيحة، بل متحررة وجميلة تتمتع برأيها الخاص. لهذا للبنان قيمة في العالم العربي، فهو جدد كل منظومة قيمه من خلال الفن اللبناني. ولانني كنت افتش عن قيم تجمعنا، بما ان الرجال الدين والسياسة لم يفلحوا في ذلك، فقد ارتأيت التأسيس على الذاكرة الجماعية المرتبطة بالتلفزيون. وبدأت العمل على تلفزيون لبنان لانه ذو رمز ولا قيامة لاي اعلام في لبنان من دونه، فهو الذي يحمل على كتفيه المسؤولية الاجتماعية التي يجب ان يتمتع بها الاعلام وهو المولج بها والمسؤول عن هذا الدور. ذهبت الى ارشيف التلفزيون وانتقيت مئة لحظة من بين مئات اللحظات التلفزيونية، ونسجت منها سردية لاخبار قصة الثقافة الشعبية في لبنان. لذا، فعملي ليس التوثيق، بل صنع ذاكرة.

■ تقول في احد الحوارات عن الكتاب ان هذه اللحظات التلفزيونية ليست مجرد لقطات مبعثرة من ارشيف مغبرّ، وانما هي محطات صنعت الثقافة الشعبية لاسطورة وطن وذاكرة وشعب بنى حلما سماه لبنان، وعاد وحطمه في علبة صغيرة احتلت غرفة الجلوس في كل بيت، ماذا تعني؟

□ التلفزيون في لبنان هو المسؤول عن صناعة الثقافة الشعبية ومنظومة قيمنا، طالما ان لا كتاب تاريخ موحدا عندنا، ولا كتاب تربية مؤثرا. ثم فجاة استحال هذا التلفزيون ايضا اداة في الحرب، وقتل اسطورة ابوملحم. حين انتهت الحرب، عاد واحيا ابوملحم، كأن الاخير كذبة كبيرة، فلا مات حقا، ولا عاش حقا. في المختصر، نحن البلد الوحيد الذي يصنع التلفزيون ذاكرتنا ووطننا!

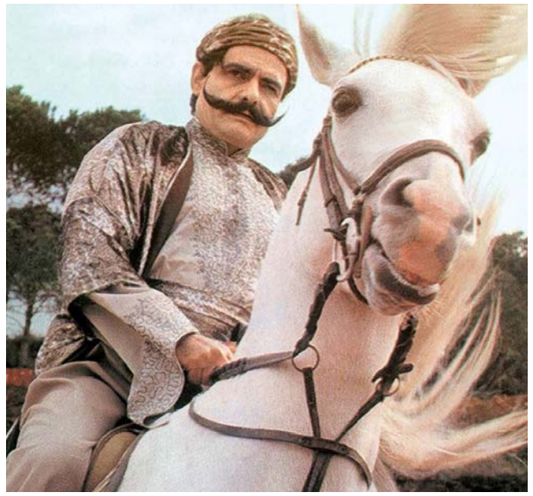

انطوان كرباج في "بربر آغا" (1979 ـ من كتاب "اسعد الله مساءكم").

ابراهيم مرعشلي وهند ابي اللمع وليلى كرم في مسلسل "المعلمة والاستاذ (من كتاب "اسعد الله مساءكم")، وايضا مرعشلي مع فريال كريم في مسلسل "ابراهيم افندي" (1986).

صلاح تيزاني ومحمود مبسوط ("ابوسليم الطبل" و"فهمان").

احمد خليفة (ابوالعبد البيروتي) وميشال تابت.

الثنائي احسان صادق ونزهة يونس.

■ بين تلفزيون الامس، وتلفزيون اليوم، في رأيك ما الذي تغير؟

□ امور كثيرة تغيّرت ليس بالضرورة الى الافضل او الى الاسوأ. تلفزيون الامس لم يكن دائما جميلا، بل بقيت الاشياء الجميلة منه، تماما كما يحدث اليوم. مشكلتي انني لم اعد افكر في مسألة الريتينغ ونسب المشاهدة، بل بما يبقيني في الذاكرة. وهذا بات مقياس عملي، وربما افقدني اللحظة. لكن اعتبر انني مررت في مراحل عدة في تجربتي، بدءا من التفكير باللحظة ثم صرت اكثر نضجا، تماما ما يشبه مراحل نمو الانسان من الطفولة الى المراهقة فالشباب فالنضوج.

س.م.